قضية التدوين في العصرين الجاهلي والأموي

محمّدنبی احمدی
استاذ جامعيّ من جامعة الرازي - كرمانشاه - ايران
mn.ahmadi217@yahoo.com

The issue of post-preaching in the pre-Islamic and Umayyad periods

Muhammadanbi Ahmadi
University professor from Al-Razi University - Kermanshah - Iran

الملخّص :

إنَّ أهمية التدوين لا تقل أهمية عن باقي العلوم في المجتمع الإنساني - ليس اغراقاً- بل هو أهم العلوم وأكثرها حاجة عند الأمم، وكيف لا وهو يقيد جميع العلوم ولولاه لما ثبت علمٌ من العلوم ولا انتقلت معلومة بين الأمم ومن هنا جاء أهمية هذا البحث الذي سعي بدرجة الأولي إلي تبيين العوامل التي أثرت فيه منها الإجتماعية والسياسية والثقافية. فالتدوين ليست قضية جديدة في الأدب العربي. ففي العصر الجاهلي كان موجوداً، وفي بداية الأمركان بشكلٍ محددٍ وإبتدائي. وفي مايتعلق بقضية التدوين وطريقة تطوره، الشعر الجاهلي مرّ في مرحلتين هامّتين من مراحل كتاباته، فالأولي التقييد والثانية التدوين. فالتقييد هو مجرد الكتابة بدون العناية بالنص جمعاً أو ترتيباً. فهو يشيرُ إلي إنَّ الشعر الجاهلي قد كتب في صحف أو ما يشبها علي اختلاف أنواعها ولأغراض شتي. وأما مرحلة التدوين فهي الكتابة الواسعة و المتطورة التي تشمل مراحل الجمع والتبويب والترتيب وهي مراحل متطورة في الكتابة. فأخذ يتطور التدوين في العصر الأموي ومن بعده شيئاً فشيئاً. لذا سعي الباحث إلي مقارنة العصرين الجاهلي والأموي في قضية التدوين، والتغييرالجوهري الذي أصاب المجتمع العربي في ذلك الوقت، والإرهاصات التي تتبعه. وقد إستخدمنا في هذا المقال الأسلوب التحليلي - التوصيفي. وفقد بينا فيه طريقة التدوين في العصر الجاهلي والتطور الذي واكب هذه القضية والعوامل المؤثرة فيها أيضاً.

الكلمات الدليلية: التدوين - العصر الجاهلي - العصر الأموي – الكتابة .

Abstract:

The importance of participation is no less important than the rest of the sciences in human society - it is not an arrogance - it is the most important and most important science in the nations, and how it does not restrict all sciences and to which science has not been proven, and no knowledge has been transferred among the nations. Hence the importance of this research. Primarily to identify the factors that affected social, political and cultural. Religion is not a new issue in Arabic literature. In the pre-Islamic era it existed, initially and specifically in the beginning. As for the issue of moderation and its development, pre-Islamic poetry has undergone two important stages of its writing, the first is the limitation and the second is the recitation. The restriction is merely writing without taking care of the text in whole or in part. It indicates that pre-Islamic poetry has been written in newspapers or the like of various kinds and for various purposes. The entry phase is a wide and sophisticated writing that includes the stages of collection, tabulation and arrangement, which are advanced stages of writing. Graduation began in the Umayyad period and after that something changed. Therefore, the researcher sought to compare the pre-Islamic and the Umayyad periods in the issue of apostasy, the fundamental change that has afflicted the Arab society in that time, and the consequences that follow. In this article, we used the analytical-descriptive method. In this way, we have lost the method of recitation in the pre-Islamic era and the evolution that has accompanied this issue and the factors influencing it.

Keywords : Post , Pre – Islamic , Umayyad , Writing

المقدمة

بدأ فجر الحضارة الإنسانية في مطلع عصر الزراعة والإستقرار من ثم إبتكار الكتابة والتدوين لحفظ وتداول منجزات العقل البشري وقد ورد منزلة ﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ (القلم/١) وهي فاتحة سورة القلم المكية التي تراها تجمع بين الماء و الكتابة جمعاً منسجماً، فلماء بداية الخلق و الكتابة أول الحضارة. إنّ مجتمع العربي قد عرف الكتابة وإستعمل أدواتها قبل نزول الرسالة الإسلامية علي رغم من أنّ القرآن الكريم يعد أول كتاب منشور باللغة العربية (فلحي،٢٠٠٦:١٣).

و كان العرب قبل الإسلام أمة أميّة كما ورد وصفهم في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (الجمعة/٢)، و أميون جمع أميّ وهو من لا يقرأ ولا يكتب، وهم ينقسمون جملة إلى بدو وحضر، والأميّة صفة أغلب أهل البدو، بل إنّ جميع عرب البوادي كذلك. ولكن هذه الأميّة لم تصدهم عن أن يكونوا من ذوي العلم، الحريصين على العلم والتعليم، إذ إنّ العرب جيل من الناس لم يزالوا موسومين بين الأمم بالبيان في الكلام، والفصاحة في المنطق، والذلاقة في اللّسان، ولذلك سموا بهذا الاسم فإنّه مشتق من الإبانة.

إنّ التعرف علي ملامح من طبيعة الثقافة العربية قبل الإسلام ليس بالأمر اليسير بعد أن غاب عنها أكثر مصادرها لظروف تاريخية مختلفة، منها تحرج علماء المسلمين عن رواية مالا يتفق مع الإسلام من التراث الجاهليين، وفي هذا المعني يقول طه حسين: كان القدماء المسلمين مخلصين في حب الإسلام فأخضعوا كل شيء للإسلام، وحبهم إياه، ولم يعرضوا لمبحث علمي ولا لفصل من الفصول الأدب أو لون من ألوان الفن إلّا من حيث أنه يؤيد الإسلام ويعزه ويعلي كلمتة، فما لائم مذهبهم هذا أخذوه وما نافره إنصرفوا عنه إنصرافاً(حسين١٩٧٤، ص٨٦).

هنالك بعض التفصيل لما أشتمل اليه البحث اضافةً إلي المقدمة، تعريف التدوين بشقيه إصطلاحاً وعلماً و بيان أهميته في حفظ ما يحققه الإنسان وآرا الباحثين في شأن

التدوين ومعرفة العرب قبل الإسلام بالكتابة وذكر قضية الوضع والإنتحال بصورة مختصرة و ماكان لها من تأثير التدوين في العصرين الجاهلي والأموي.

تعريف التدوين وأهميته

مصطلح التدوين من الجذر (دون)، ولم أعثر له في كثير من معاجم اللغة العربية كلسان العرب وتهذيب اللغة وغيرهما، أما مصطلح (الديوان) فذكره صاحب اللسان بأنه: مجتمع الصحف، قال أبو عبيدة: هو فارسي معرب. (إبن منظور: مادة "دون") وعلمياً هو الكتابة الواسعة التي تشمل مراحل الجمع والتبويب والترتيب.

عند ما يكون الحديث عن التدوين العرب الأوائل أذ لم يكن لديهم تلك الوسائل التي تتيح لهم أن يحفظوا مالهم من آثار ادبية بحيث إنَّ ذلك المجتمع البدائي لم يعرف القرائة والكتابة بشكلٍ كبير إنّما كانوا يعدون ويحصون الذين يقرأون ويكتبون ومن جهة أن مستلزمات الكتابة لم تكن موجودة وأنَّ القلة القليلة التي كانت تعرف الكتابة كانت تسجله علي الأحجار والسعف والعظام لذلك الحديث عن التدوين والمولفات العربيه الأولي يفتح باباً للحديث عن الكتابة. و تبين أنَّ الظروف العرب عن الكتابة لم يكن تفضيلاً للشفهيه كما يري البعض و كما يبدو أحياناً، بقدر ماهو نتيجة منطيقة للأمية التي كانت منتشرة حينها. والواقع أن انتشار الشفهية و هيمنتها علي التقاليد الثقافة العربية قديماً أمر طبيعي نظراً لعوامل شتي منها تفشي الأمية (بمعني جهل القراءة و الكتابة) في الأوساط العربية قبل الإسلام فلا يكون الإنصراف عن الكتابة و الحال هذه مبنياً علي موقف منها لذاتها بقدرما هو نتيجة لضيق مجالها في المجتمع و غرابتها عنه (صحراوي، ٢٠٠٨، ص١٩٩).

هذا ويمكن أن نشير إلي حالة الكتابة قبل الإسلام وذلك بالاطلاع علي روايات العلماء الذين تحدثوا عن الكتابة العربية. فها هو إبن قتيبة يقول: كانت الكتابة في العرب قليلاً ويضيف قائلاً:

لما عدمت العرب الكتابة في الجاهلية، وكانت أمة أمية جعل لها الشعر العوض، فأدركت به الغرض أقامته مقامها، فدونت به كلامها، وعرفت به أيامها. وأن كان هذا الرأي لم يسلم من الانتقاد حيث ذكر أن قد جاء في القران الكريم حديث مهم عن الكتابة ومايمت إليها بصلة، فوردت ألفاظ القلم، والصحف والقرطاس والرق، مما يشير

إلي وجود حالة معينة ومستوي محدد من الكتابة عند العرب (إسمندر وبديوي، ١٩٩٦، ٤٨و٤٩) لهذا كانت بعض من هذه الألفاظ في بعض شعرهم ونثرهم وذكرت"الصحيفة" في شعر للقيط بن يعمر الإيادي، هو قوله:

سـلامٌ في الصـحيفة مـن لقـيطٍ إلى مـن بـالجزيرة مـن إيـادٍ

وذلك في قصيدته التي كتبها إليهم، يخبرهم فيها بمسير "كسرى" عليهم، ويحذرهم من قدومه وكما ذكرت في شعر لعدي بن زيد العبادي، وصف فيه قصة "الزّباء" و"جذيمة" و"قصير"، حيث يقول:

ودسـت في صـحيفتها إليـه ليملـك بُضـعها ولأن تـدينا

(الأصبهاني، ١٩٩٤، ص١٠١)

وكان من عادة أهل الجاهلية تدوين أحلافهم في صحف، توكيدًا للعهد، وتثبيتًا له. وقد أشير إلى ذلك في الشعر وفي الأخبار. ورد في شعر قيس بن الخطيم:

لمـا بـدت غُـدوة جبـاههم حنـت إلينـا الأرحـام والصـحف

(ديوان قيس١٩:١٩٦٢)

وأشير إليها في شعر ينسب لدرهم بن زيد الأوسي، يخاطب الخزرج بما كان بينهم من عهود ومواثيق، إذ يقول:

وإن مـا بيننـا وبيـنكم حـين يقـال الأرحـام والصـحف

ولما قاطعت قريش "بني هاشم وبني المطلب"، كتبت بذلك كتابًا عرف بـ "صحيفة قريش"، وختموا عليها ثلاثة خواتيم، وعلّقوها في سقف الكعبة، وقيل: بل كانت عند أم الجلّاس مخربة الحنظلية، خالة أبي جهل، وقيل: عند هشام بن عبد العزى (علي المصدر نفسه١:٢٥). وترد الصحف بمعنى الوثائق، وكل تسجيل يراد الاحتفاظ به للرجوع إليه عند الحاجة، فالديون تسجل في صحف وكتب، والأمور الهامة تسجل فيها كذلك، هذا "علباء بن أرقم بن عوف" الشاعر اليشكري، يذكر دَيْنًا دوّن في صحيفة، فيقول:

أخـذت لـدين مطمـئن صـحيفة وخالفـت فيهـا كـل مـن جـار أو ظلـم

(الأصمعي:٦٣)

الكتابة والخط العربي

كما إنَّ في ذكر الخط العربي وتاثيره علي الكتابة والتدوين ومعرفة العرب به حيث أنَّ الكتابة العربية وليدة الكتابة النبطية التي كانت تعيش في شمال الحجاز وجنوبي الشام في القرون الأولي من الميلاد وقد أخذت هذه الكتابة تتطور تطوراً سريعاً وفي القرنين الخامس والسادس إنمحت الكتابة النبطية وزالت تماماً، ولكنها بعثت في صورة أخري هي الكتابة العربية.

وهذا الخط لم يؤخذ الخط من العربي من الحيرة أو اليمن أو غيرها وإنما ولد ونشأ في بلاد العرب الشمالية -الحجاز-لأنَّ الكتابة من الأشياء الضرورية للتجارة وأهل الحجاز قوام حياتهم التجارة (اسمندر وبديوي، ١٩٩٦، ص٤٩و٥٠).

فقد كان العرب يكتبون في جاهليتهم ثلاثة قرون علي أقل تقدير بهذا الخط الذي عرفه بعد ذلك المسلمون. وقد ثبت وجود المعلمين في الجاهلية، كما ثبت وجود ما يشبه المدارس الخاصة عند العرب قبل الإسلام وموضوعات الكتابة عندهم فقد كانت تشتمل علي الكتب الدينية لليهود والنصاري وأستخدمت كذلك في تسجيل العهود والمواثيق والأحلاف والصكوك التي كان عرب الجاهلية يكتبون فيها حساب تجارتهم وحقوقهم علي غيرهم.

وهناك آراء لكبار الباحثين الذين حققوا في تاريخ الأدب الجاهلي ومعرفة العرب آنذاك بالكتابة حيث ينكرون ومنهم الجاحظ ومحمد بن سعيد الزهري وبن عبدربه عبدالقادر البغدادي لمعرفة العرب قبل الإسلام للكتابة ومن أسباب الإنكار، الإطلاع علي أخبار في الآثار التي تدون لحياة الجاهليين؛ فإعتمدوا عليها إعتماداً كلياً، وكان أغلب تلك المدوّنات تظهر الحقبة الجاهلية علي أنها قليلة الحظ من كل عمران و رقي وأنَّ العرب كانوا أمة أمية لاحظ لها من علم أو معرفة أو كتابة.

أما المستشرقين الذين نفوا معرفة العرب في الجاهلية بالكتابة فأشهرهم مرجليوث وشارل جيمس وجورجيو ليفي وبلاشير وتدور مستنداتهم لإثبات دعواهم وتشكيكهم في أصل الشعر الجاهلي وصحته، وما يتصل بها من إثبات أو نفي للكتابة لدى الجاهليين، على الدليل المادي الملموس، الذي يتمثل في عدم القطع بحكم عن فترة سابقة سحيقة، دون وجود أدلة عينية من أدوات مكتوبة أومنقوشة لإثبات فكرة ما.

ومن القائلون بمعرفة عرب الجاهلية بالكتابة؛ أحمد بن فارس وأقوال متناثرة في مؤلفات قديمة كثيرة:

مثل في فتوح البلدان لأحمد بن يحيى البلاذري وفي تاريخ الأمم والملوك لمحمد بن جرير الطبري وفي الأغاني لأبو الفرج الأصفهاني وفي معجم البلدان لياقوت الحموي والعصر الجاهلي، الفن ومذاهبه- النثر لشوقي ضيف ومصادر الشعر الجاهلي لناصر الدين الأسد وأحمد الحوفي.

حيث جاءت في هذه المؤلفات مجموعة من الأقوال التي تشير إلى وجود الكتابة في العصر الجاهلي. ولكن حجم الكتابة التي يقرؤونها متفاوت لا يقدمها على أنها ظاهرة حضارية وإستدلوا في ذلك على التاريخ الذي ذكر طبيعة الحياة الجاهلية. وعلى النصوص الشعرية المنسوبة إلى العصر الجاهلي التي تذكر أدوات الكتابة ومعرفة العرب بها. وعلى نصوص القرآن الكريم التي جاءت تخاطب العرب وتعلي من شأن الكتابة وتقسم بأدواتها.

وعلي أية حال فإنّ كل ما تقدم يشير إلي أنَّ الكتابة نتيجةٌ للتجارة وكتابة الأحلاف وكتابة علي الأحجار ورحل وغيرها كانت معروفة بين عرب الجاهلية-سواء في وسط الجزيرة أو في أطرافها بدرجة تكفي لأن تنفي ما قبل من ندرة أو إنعدام الكتابة، ويشير من جانب آخر إلي أنَّ الكتابة كانت وسيعة في الإنتشار ومع ذلك فأنَّ الكتابة العربية كانت تنتظر الفرصة العظيمة التي أتاحها الأسلام لكي تعبر عن حضارة جديدة، قادها القران الكريم الذي دوّن بها.

فهناك علاقة وطيدة لأنَّ الكتابة هي أداة التدوين وثمرة التدوين الأولي هي المولفات الأولي وهي مصادر المرويات العربية، فضعف سلطان الذاكرة العربية و بروز الحاجة الملحة للتدوين والتقييد وحفظ تراث السابقين ومنه القصص والإخبار في الكتب والأسفار، هذا دون نسيان دور الانتشار الكتابة والتدوين في إنحصار الرواية وتلاشيها وبالتالي الحد نسبياً من إنحرافها.(صحراوي، ٢٠٠٨، ص٢٠٥)

قضية النحل والوضع

وقبل أن نأتي بتفصيل عن قضية التدوين لابد لنا أنَّ قضية مهمة شغلت أفكار من العصور المتقدمة إلي يومنا هذا وهي قضية النحل والوضع التي بسببها شكك بألادب العربي كما في غيرها من الآداب من أقوام وملل في مراحل من مراحل تاريخه.

النحل والوضع شيء معهود في الثقافات في تلك العصور التي لم تكن قد عرفت عصر التدوين، والتي كانت تعتمد أكثر ما تعتمد علي الرواية الشفهية في نقل الشعر من جيل الي جيل؛ وإن فاقت الأمة العربية غيرها من ألامم في موهبة الرواية الشفوية قبل أن سيتحدث العلماء منهج الرواية بالسند بعد ظهورالإسلام. الأدب الجاهلي ليس فقط هو من تعرض للشك، بل أن مسألة الشك في الأدب مسألة قديمة تشمل الأدب القديم كله عند الأمم التي كان لها أدب معروف مدروس. فلابدً لكل أثر له قيمة وأهمية من أن يتعرض للشك والإتهام والقيل والقال والظن والطعن في أصله ونسبه وأصحابه وصحته وصدقه وقيمته وحجمه ونقصه والزيادة عليه وما إلى ذلك مما قد يعرض لفكر الإنسان وعقله من الشكوك والظنون. والأدب في كل أمة من الأمم وبخاصة ما فيه من نصوص رائعة من الآثار الفنية الممتازة التي تعد بها الأمم وتفتخر وتعتبرها دليل مجدها وسجل مفاخرها ومن ثم تعرضت الآداب القديمة في كل الأمم لشك والإتهام.

لقد إتهم الأدب العربي قبل الإسلام بالوضع والتزوير، وحدث مثل هذا للآداب القديمة الأخرى كالأدب اليوناني والروماني والإنجليزي فقد رمي كل أثر من هذه الآثار القديمة بأنه ليس لأصحابه الذين يدعى أنه لهم، وأنه قد دخله كثير من التحريف والتزييف. لقد إشتمل الوضع أو النحل أو الإنتحال كل ما يمت إلى الأدب العام بسبب كالنسب والأخبار بل حتي الكذب والوضع في الحديث النبوي الشريف في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأشار إلى ذلك فقال عليه الصلاة والسلام :(من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار) فكيف بالشعر العربي. لذلك لم يكن أمر الوضع والإنتحال ليخفي على الرواة وعلماء اللغة العربية شعرها ونثرها فقد تنبه لذلك الناقد العربي الكبير محمد بن سلام الجمحي وغيره من نقاد القرن الثاني والثالث الهجري.

التدوين في العصر الجاهلي

لم يكن للعرب في فترةِ ما قبل الإسلام ثقافة مدوّنة وعلوم مسجلة، فقد غلبت عليهم البداوة والترحال، فانتشرت بينهم الأمية، ولم يتركوا خلال هذه الحقبة من فجر حياتهم سوى نقوش قليلة تنبئ عما كان لهم من دور حضاري. إنّ العصر الجاهلي لم يكن عصر التدوين وإنَّ الشعر الجاهلي لملكات الأفذاذ من فحول شعرا العرب حيث أنّ شعرهم كان يتناقله العرب بصورة شفهية إذ كان الجهل فاشياً فيهم و الأمية شايعه بينهم خصوصاً في الأقطار البدويه لما قدمنا من أنَّ الكتابة و العلم إنما يكثران حيث يكثر العمران و المناطق الحضرية و يقول بن خلدون إنَّ اهل الحجاز تعلموا الكتابه من أهل الحيره و هؤلا تعلموا من الحميرين (أمين، ١٩٦٩، ص١٤٠). فإنّ الشعر كان أكثر علم العرب، فبه حفظوا أيامهم وخلّدوا مآثرهم، ودونوا حروبهم وسنّوا كثيراً من مكارم الأخلاق. وقد بلغت العناية بالشعر مبلغاً عظيماً، فـ «علم الشعر عندهم فسطاط علومهم كلّها، لما لم يكونوا يدونون ويكتبون، وكانوا يُعْنَون بحفظ أنسابهم وتاريخهم ومفاخرهم، وكانوا يخشون النسيان على قوة عوارضهم وبراعة حوافظهم، فكان الشعر من حيث إنَّه يذكر مفاخرهم، ويثير شجاعتهم، ويرثي شريفهم، ويمدح سادتهم، ويتضمن في ذلك حفظ أنسابهم وتذكيرهم بأيامهم، بمنزلة المتن الذي يحفظه التلميذ على ظهر قلبه فيتذكر من موجز عباراته شروحاً طويلة في ذهنه.

وكما كان في الجاهليه يعتمد الناس علي الروايه و كان الشاعر يقف فينشد قصيدته و يتلقاها عنه الناس و يرونها ومعني ذلك أنّ النهر الكبير الذي فاض بالشعر الجاهلي إنّما هو الروايه الشفويه وقد ظلت أزمنة متتاليه في الإسلام ويدل علي ذلك أقوي الدلالة أنَّ الحديث النبوي الشريف ظل في أغلب أحواله يعتمد علي الرواية الشفوية إلي نهاية القرن الأول للهجرة و إذا كان الحديث بما له من قدسية لم يعمدوا إلي تدوينه تدويناًعاماً إلّا بعد مرور نحو قرن علي الهجرة الشريفة فأولي أن يكونوا قد اتبعوا ذلك في الشعر الجاهلي، ولم يكن ركناً في الشريعة الإسلامية ولا كانت تقوم عليه حاجاتة الدينية الملحة ومن يرجع إلي شعرهم يجد شعراهم يذكرون دائماً الرواية وإنَّها وسيلة إنتشار فالقبائل كانت تهتم بها كثيراً وقد نفذ شعرهم من خلالها إلي أفاق الجزيرة.(الجاحظ،ج١/٧٤ و ج٣/٢٨)

بعض الكتابات في العصر الجاهلي يرينا أنَّ العرب لم يدونوا شعرهم في الجاهلية وإنّما ما يذكر من أخبار عن كتابة بعض أشعارهم لمقطوعات لهم، فإنّه لا يدل علي أنهم فكروا فعلاً في تدوين أشعارهم أنما هي قطع تكتب علي رحل أو علي حجر أو جلد لأبناء القبيلة وبعض أفرادها بسبب حادث أو مايشبه. وجاء في الأخبار أنه "قد كان عند النعمان بن المنذر ديوان فيه أشعار الفحول وما مدح به هو وأهل بيته (الجمحي، المصدر نفسه، ص١٠). وورد عن "حماد الرواية" أنه ذكر أنَّ النعمان ملك الحيرة أمر فنسخت له أشعار العرب في الطّنوح، وهي الكراريس؛ فكتبت له ثم دفنها في قصره الأبيض... لكن رفض رواية حماد عن تدوين النعمان بن منذر لأشعار العرب وما مدح به هو وأهل بيته ومن الأدلة علي ذلك أننا لا نجد راوياً ثقة يزعم إنّه نقل عن قراطيس كانت مكتوبة في الجاهلية. كما إننا لا نجد راوياً ثقة يزعم أنّ شاعراً في الجاهلية القي قصيدتة في حول وأغلب من حول كان يعدها في نفسه ويرددها في ذاكرتة ثم ينشدها ويحملها الناس عنه، ومن ثم قال الجاحظ وكل شي للعرب فما هو بديهه وارتجال وكأنه إلهام، فتأتيه المعاني إرسالاً أفواجاً و تنثال عليه الألفاظ إنثيالاً ثم لا يقيده علي نفسه. لذلك لايوجد في جزيرة العرب تدوينًا للتأريخ، وهذا لعدم وجود حكومات منظمة كبيرة فيها، ولسيادة النظام القبلي في أكثر أنحائها وإنما نجد فيها رواة يرون أخبار قبيلتهم وأمورها وعلاقتها بالقبائل الأخرى، وحوادثها وأيامها، ورواة تخصّصوا برواية الأنساب، لما للنسب من أهمية في المجتمع القبلي، ونجد جماعات تحفظ الشعر وما شاكل ذلك من أمور تخص القبيلة والنظام القبلي، وكل ذلك رواية، أي مشافهة، لا كتابة. ومثل هذا النوع من التأريخ الشفوي (المصدر نفسه، ج١/١٢٢). راجعوا رواية الشعر، فلم يألوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب. وورد عن "أبي عمرو بن العلاء" أنه قال: "ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله، ولو جاءكم علم وشعر كثير (الجمحي، ص١٠). ولا جدال بين العلماء حتى اليوم في موضوع ذهاب أكثر الشعر والأدب الجاهلي، والذي وصل إلينا مدونًا في الكتب، هو قليل من كثير. وقد عللوا هذا بسبب إندثار أكثره وذهابه بسبب عدم تدوين الجاهليين له، وإكتفائهم بروايته حفظاً، فضاع بتقادم الزمان، وبموت الرواة، وبإنطماس أثره من الذاكرة، وبإنشغال الناس بأمور أخرى عن روايته (علي، ج١/٦٩).

في الغالب لم يكن للعرب في فترة ما قبل الإسلام ثقافة مدونة وعلوم مسجلة علي أنّ العرب عرفوا أنماطا من المعارف والعلوم البسيطة قبل ظهور الإسلام، مما يتصل بالأنساب والطب والأنواء١ والقيافة٢والفراسة ٣ وهي علم تناسب بيئتهم القاسية وإنَّ السمات الحقيقة لحياة العرب العقلية في العصر الجاهلي تتجلي في اللغة والشعر والقصص والأمثال وأغلب الظن أنَّ العرب لم يعرفوا في ذلك الزمان غير كتب الدين بدليل إطلاق تعبير أهل الكتاب في القرآن الكريم علي أصحاب الديانات السماوية الأخري غير الإسلام.

وهنالك رأي لأحمد أمين حيث يقول: (ذهب المؤرخون إلي أنَّ تدوين العلوم والأخبار ما ظهر إلّا في منتصف القرن الثاني للهجرة وهذا علي ما يظهر لنا غير صحيح، فأنَّ التدوين بدأ في القرن الأول، بل كان قبل الإسلام كان التدوين وكان هذا التدوين يكثر في البلاد المتحضره كاليمن والحيره وقليلاً في بلاد الحجاز فألحميريون في اليمن دونوا كثيراً من أخبارهم وحوادثهم ونقشوها علي الأخبار ولاتزال آثارهم في ذلك تستكشف بين حين وحين فلما جاء الإسلام فكانوا يكتبون علي الرقاع والأضلاع والسعف النخيل والحجارة والرقاب البيض ثم جمعت في ما بعد ودونت بشكل صحيح (امين، ص١٦٦). ووردت أخبار أخرى تدل على وجود تدوين للشعر عند الجاهليين؛ إلّا أنّنا لا نجد حمادًا ولا غير حماد ينص على أنه نقل ما دوّنه من تلك الموارد المدونة أو من غيرها مما وجده مدوّنًا. وهذا ما حدا بالعلماء قديماً وحديثًاً إلى البحث في هذا الموضوع: موضوع الشعر الجاهلي من ناحية وجود تدوين له أو عدم وجود تدوين له. وأثر ذلك على درجة ذلك الشعر من حيث الصحة والأصالة والصفاء والنقاء (المزهر، ج٢/٤٨٠).

وقد توقف "بلاشير" أيضاً في قضية تدوين الرواة لشعر الشاعر الذي تخصصوا به، أو برواية شعر أي شاعر كان. يرى احتمال تدوين بعض الرواة الحضر لبعض عيون الشعر، غير أنه يعود، فيرى أن ذلك مجرد احتمال، وأنَّ من الصعب إثباته بأدلة مقنعة، ويذهب إلى أن رواية الرواة، كانت رواية شفوية كذلك (علي المصدر نفسه :٩٨ومابعدها). ولا إستبعد إحتمال تدوين الشعراء الجاهليين الذين كانوا يحسنون الكتابة والقراءة لأشعارهم، كما لا إستبعد إحتمال تدوين رواة الشعر، ولا سيما ما نبه

وشرف منه، غير أنّنا لا يمكن أن نقول إنّ الشاعر كان يدون كل شعره، أو أن الرواة، كانوا يدونون كل ما حفظوه من الشعر، لأنّ هذا النوع من التدوين لم يكن مألوفاً عندهم، كما كان يكلف ثمنًا باهظًا، لا قِبَلَ للشاعر أو للراوية بتحمله، ثم إنَّ القرطاس كان نادرًا عندهم.

وفي ما ذكره أحمد أمين وبلاشير إلي إحتمالية التدوين رد كثيراً من الباحثين إلي أنّ هذا الإحتمال ولو كان موجوداً لايندرج في ما نسميه التدوين بل هو التقييد. والتقييد: هو مفهومٌ له معناه الخاص، وهو في اللغة يفيد التثبيت والربط. وفي الإصطلاح: "الكتابة الضيقة" ويَقصِد بها: مجرد الكتابة دون العناية بالنص جمعاً أو ترتيباً.

التدوين في العصرالإسلامي

ظهور الإسلام وأثره علي النظام الاجتماعي

إقترن ظهور الإسلام بالدعوة إلى التعليم منذ بداية التنزيل، حيث إنّ الرسالة لم تبدأ بالدعوة إلى إقامة الشعائر -بمعناها الخاص من صوم وصلاة وحج وزكاة- ولا بالحديث عن أركان الإسلام وأسس بنائه، ولا ببيان نظام التعامل الاقتصادي، ولا بمرتكزات الحياة السياسيّة ومقوماتها، ولا ببيان القيم الأخلاقيّة، ولا حتى ببيان أركان العقيدة، وإنما بدأ بمفتاح ذلك كلّه ومحور ذلك كلّه، بدأ بـ (اَقْرَأ) (العلق٢١).

أنَّ في بدايه الإسلام والبعثة النبوية الشريفة كان هناك قليلٌ من قريش والقبائل الأخري يكتبون ورسول الله (ﷺ) جهز بعض من هؤلاء الذين يعرفون الكتابة لكتابة ما ينزل من القرآن فكان أول من كتب له مقدمة المدينة أبي ابن كعب الانصاري و غيرهم من أصحابه كانوا يكتبون الوحي ولم يكون مهرة فكان لديهم أخطاء في الأملاء في هذه الكتابه. (أمين المصدرنفسه:١٤١).

لذلك بدأت بذور الأولي تنمو للكتابة والتدوين ليصبح بعد ذلك من الزمن في أواخر العصر الأموي والعصر العباسي الذي هو يكون العصر الذي نشأت وإزدهرت العلوم المختلفة وبالنتيجة ظهور التأليف والتدوين والترجمة بشكلٍ واسع ولقد كان القرآن الكريم أول نص عربي دون في شكل كتاب وتمت عملية التدوين للقرآن في ثلاث مراحل أولها في عهد النبي(ﷺ) فقد نزل القرآن في نحو ثلاث وعشرين سنة وكان الرسول يحفظه ويبلغه للناس ويأمر بعض الصحابة بكتابة ما ينزل من الآيات علي سعف

النخيل والرقاع والعظام وغيرها وفي زمان أبي بكر كانت مرحلة التدوين الثانيه وكان القصد منها جمع نصوص القرآن وحفظها من الضياع وفي زمان عثمان، علمية التدوين الثالثة بهدف منع إختلاف الناس في قرائة القرآن فأمر بتدوين مصحف معتمد، وفي أوائل العصر الأموي قام الأسود الدولي ومن بعده نصر بن عاصم الليثي بتشكيل آيات القرآن الكريم.

ويجب الحديث علي أنّ عدم وجود التدوين وإنتشار الرواية والشفوية فيما يخص اللسانيات في اللغة العربية وأنحرافها، ومن أهم التحديات التي كانت تواجه اللغة العربية و قرائتها أنها كانت تتجه نحو الإنحراف لعدم وجود كتابة العلوم الأدبية المختصة بالتشكيل والإعراب والإنحراف عندما نقرأ في كتب التاريخ بفساد ملكة اللسان العربي في الحركات المسماة عند أهل النحو بالإعراب ثم إنتقل إلي موضوعات اللسان أي فقدان القدرة علي ضبط الصحيح للعلاقة بين اللفظ و معناه ،فإستعمل كثير من كلام العرب في غير موضعه أدي هذا الإنحراف الذي يحتفظ لنا التاريخ بصور ونماذج سردية منه(أفغاني) إلي تدارك خطر الدروس أي الزوال، بحفظ الموضوعات اللغوية بالتدوين(الشكعة١٠١:١٩٨٢....فسبقت التأليف مرحلة الجمع والسماع والتدوين وهي مرحلة بدأت في فترة متقدمة منذ النصف القرن الأول الهجري وكان للمرويات والسرود والأخبار نصيب وافر من الإهتمام في هذه المرحلة فتأثرت بموقع ممتاز منها. (صحراوي٨٩:٢٠٠٨)

العصر الأموي

لقد بلغ التطور والنشوء مرحله ما عاد فيها للحفظ والنقل الشفوي مع ضعف سلطان الذاكرة ولم يعد الوعي الراوئي الشفوي قادر علي نقل المنجز الفكري العقلي الحضاري ومواصلة حفظه وتأمين بقاه مع الظروف الجديدة ومن كان هذا المنجز عرضة للإضمحلال والإنقراض .الإنقراض الذي كان يهدد حاملة الأساس اللغة، اللغة العربية بطبيعة الحال . إقتضي ذلك نقل الذاكرة الجمعية من الأذهان والذاكرات الفردية إلي صحائف ووثائق وكتب تملك بها وتثبتها وتقيدها. (رافعي٢٨٣:١٩٧٤)

أنَّ التدوين لم ينقذ النصوص والمرويات من الضياع فقد بل أنقذها وحماها من التعدد والإنشطار والإختلاف جرّاء ما كان يعتريها من الزيادة والنقصان بتأبيد الوجة أو

الوجوه التي كانت سائدة ومعروفة عند التدوين. (ابن خلدون، فصل السادس و ثلاثون)

أقدم الأمويون علي جمع وتدوين الشعر الجاهلي لمواكبة تطور العصر والحفاظ علي التراث من الضياع ولكي يبقي للأجيال القادمة، ولعل الأيام تتحفنا بتواريخ فارسية، ترينا أن للفرس رأياً أصيلاً في التأريخ، وأن لهم طريقة المؤرخين في تدوين تأريخ العالم وتأريخ بلادهم وفي تدوين سير الملوك والأشخاص، وأنهم كانوا قد عينوا مراسلين يلازمون جيوشهم لتدوين أخبار الحروب، كما فعل الروم، ولكن بعقلية مستقلة لم تتأثر بطريقة اليونان واللاتين بل نقل المورخون المسلمون إنّ المدونون في ذلك العهد تأثروا في طريقة التدوين الحوادث بالنمط الفارسي لا بالنمط اليوناني ويتجلي ضعف التاثير اليوناني بضعف معلومات المسليمن اليونانية حتي في العصر العباسي وعلي الجملة يظهر لنا إنَّ الأدب الفارسي كان أكثر تاثيراً في الأدب العربي من الآداب اليونانية. (امين:١٣٦)

فكان للعقلية العربية طبيعتها الخاصة وهي نتاج بيئتها وعيشة إجتماعية خاصة يعيشها العرب في جاهليتهم والدين الإسلامي أتي بتعاليم جديده رسم للحياة مثلاً أعلي يخالف المثل الذي كان ترسمة تقاليد الجاهيلة، والفتح الإسلامي مد سلطانه علي فارس وما حولها وعلي مستعمرات الرومانيه كثيرة فاذاب ما كان للفرس من دين ومدنية وعلم وما كان للمستعمرات الرومانيه من دين ومدنية وعلم، في المملكة الاسلامية جميعها وكون منها مزيجاً واحداً مختلف العناصر كلها هذه الاشياء التي عددنها كانت أسباب لها نتائجها ومن نتائجها وما كان من حركة علمية ودينية في ذلك العصر، العصر الذي ينتهي بإنتها الدولة الأموية. (أمين المصدرنفسه: ١٣٩)

وفي أواخر العصر الأموي ونتيجة للفتوح ودخول الأمم المتحضره في الإسلام بدأ التدوين ونعني بألتدوين ما هو أوسع من التأليف، نعني به تقييد الأخبار والآثار والكتابة فوجود كثير في الكتب في العلوم الأدبية وغيرها من العلوم في ذلك العهد من جملتها تدلنا علي أنَّ التدوين لم ينتشر كثيراً في العصر الأموي، بعد أن تعلموا نظام التأليف الكتب بالمعني الذي الان من جمع ما يتلعق بألموضوع في كتابٍ واحدٍ. (صحراوي: ١٩٩)

ولعل بواكير المؤلفات أخذت تظهر إلي حيز الوجود خلال النصف الثاني من أوائل قرن الأول الهجري وأوائل القرن الثاني ويظهر أنً التدوين بدأ بتقييد العلم من غير أن تظهر فيه للمؤلف شخصية ما وليس له الّا الجمع وكانوا ذوي الحضارة القديمة وكتب مؤلفه من قبل أدخلوه علي اللغة العربية وكتب هذه المرحلة سوي مباحث مفرده لا يتجاوز كل منها حدود المسألة التي يناقشها إلي ما يتصل بها ويدور حولها، وكذلك يقول بعض الدارسين إنً التىوين بىأ في بداية الدولة الأموية عنىما إستحضر معاوية عبيد بن شريه الجرهمي إلي ىمشق وتىوين مروياته الشفويه التي كان يخبربها عن الأخبار المتقدمة عن سلوك العرب والعجم ومروياتة هذه كانت هي أول ما دون في الأخبار. (الشكعة:٥١"الرافعي١٩٧٤: ٢٨٤)

وبدأ التأليف الحقيقي منذ أن بدأ التدوين يظهر في البيئة العربية، ففي عصر بني أمية شهد حركة كبيرة في مجال التأليف، ولم تكن هذه الحركة قاصرة على علوم الدين واللغة والأخبار والأنساب فحسب، وإنّما كانت لهم إسهاماتهم في مجال العلوم الأخرى كالكيمياء والطبيعة، وهذا دليل على أنّ العرب بدئوا يطرقون باب التأليف منذ فترة مبكرة، تواكب بداية التدوين عندهم.

مما يؤكد ذيوع التأليف في عصر بني أمية: إشتهار عدد كبير من العلماء بإقتناء المكتبات الخاصة والعامة، ومن هؤلاء: إبن شهاب الزهري التابعي، وكان من أكابر الرواة الحفاظ الفقهاء، والوليد بن يزيد أبو عمرو بن العلاء وغيرهم، ومن المكتبات العامة في عصر بني أمية التي إحتوت على ألوان شتى من العلوم والفنون، وإرتادها طالب العلم مكتبة عبد الحكيم بن عمرو بن عبد الله بن صفوان، ويؤكد إهتمام بني أمية بالتأليف أيضاً وتفوقهم فيه -بجانب هذين- يؤكد هذا امتلاكهم لأهم أداة من أدوات التأليف؛ وهي الكتابة الفنية، وهذه أهم دليل. (علي المصدرنفسه١/٣٤)

وأنً من الأسباب التي شجعت وجعلت الأمويين ينحون إلي الإبتداء بالخطوات الأولي للتدوين، هي عودة روح الجاهلية من جديد من تعصب عرقي عربي وقبلي حيث لم يشجعوا إلّا الحركة الأدبية والقصص الرسمية، ففتحوا أبوابهم للشعراء والخطباء وبذلوا لهم الأموال وعينوا القصاص في المساجد ولم يفعلوا من ذلك شيئاً للعلماء ولعل السبب في ذلك أمران، الأول أن حكم الأمويين بني علي الضغط والقهر،

فكانت حاجاتهم إلي الشعراء والقصاص أشد لأنّهم يشيدون بهم و بذكرهم، والثاني النزعة الاموية نزعة عربية جاهلية لاتتلذذ في الفلسفة وغيرها من بحوث الدين ولابد طريقة الحكم وتعاطي نستثني بذلك عمر بن عبد العزيزالذي لم يحكم سوي سنتين.(امين١٩٦٩/١٦٤)

النتيجة

نستطيع القول أنَّ الفكرة التي تحدث عنها كثير من الباحثين، أنَّ من الخطأ تقسيم تأريخ الأدب علي أساس تقسيم السياسي والحكومات التي تحكم فألتدوين ليس خارجاً عن ذلك وأنه مثله كمثل باقي العلوم بحيث أنه ليس وليد ليلة وضحاها وأنما قضية التدوين كانت نتيجة تراكمات عهود أكتملت في العصر العباسي.

وأنَّ التدوين حصل بعد ما كان العرب قبل الإسلام من تقييد وكتابة بشكل محدود في حال كانوا يكتبون علي الصخر وعظم الحيوانات والسعف وماشابه ذلك من الأدوات لحفظ ماتوصلوا إليه من علوم وآداب إلّا أن بزوغ فجر الإسلام الذي بطلعته أنار به عقول العرب وغير العرب وفتح لهم طرق العلم وعبدها حتي كان التدوين أصبح مهمة ملحة لحفظ القران والحديث والعلوم الأخري من الضياع وتطور الحال في العصر الأموي ونتيجة للإتصال بألامم الأخري وأشتداد هذه المهمة الملحة خوقاً لنحل والوضع وردة فعل علي ذلك كان أواخر العصر الأموي ممهد لإزدهار العلوم و التدوين منها في العصر العباسي ويجب التاكيد أن العصور المتقدمة عن العصر العباسي كانت كفيلة بإكتمال هذا العلم والبذرة الأولي كانت للكتابة والخط والتدوين بشكل عام موجودة وهي نمت وكبرت وأصبحت بشكل علم كامل في العصر العباسي.

الحياة الجاهلية للعرب، التي من معالم هذا العصر البداوة وتلك الحياة لم تسمح بنشأة علم منظم أو وجود علماء يتوافرون علي العلم ويدونون قواعده ويوضحون مناهجه لأنَّ العلوم ومن جملتها التدوين وليد حضارة المدنية ولا يكون إلّا بعد تتخطي الأمة ومنها العرب إلي مرحلة التمدن.

- تحرج علماء المسلمين عن رواية مالا يتفق مع الإسلام.
- عدم وجود نظام سياسي مركزي الذي من خلاله ينظم المكاتب للتدوين للعاملين بهذا القطاع.

- تغيير الفكري الذي أصاب المجتمع الجزيرة العربية بظهور الإسلام ونوع الحكم الذي ساد بعده.
- تغيير نوعية الحكم الإسلامي في العصر الأموي وما له من تبعات علي شتي المجالات في حياة الإنسان آنذاك والتي سعت الأنظمة في ذلك العصر إلي تثبيت وتشريع قوانين التي تحمي مصالح وهيبة الدولة.
- عدم وجود الإستقرار السياسي والإجتماعي المناسب في العصر الأموي ليمهد ليكون هذا العصر هو عصر إزدهارالعلوم بدل العصرالعباسي، الذي كان هو عصر الإزدهار في كل المجلات لأنً في هذا العصرمازال التحفظ علي الأصول والسنة التي جاء بها الرسول (ﷺ) قائمة بسبب وجود كثير من الصحابة وإستمر هذا الزخم حتي جاءت الدولة العباسية علي يد التابعين.

قائمة المصادروالمراجع

إن خير مانبتدىء به القرآن الكريم

الحديث النبوي الشريف

١. إبن المنظور، محمد، (بدون تاريخ)، (لسان العربَ)، دار صادر، لبنان، بيروت، مجلد ٣
٢. الأفغاني، سعيد. (بدون تاريخ)، (في أصول النحو)،دار الفكر للطباعة والنشر، بدون أشارة إلي مكان الطبع
٣. أمين ، احمد.(١٩٧٥) ، (فجرالإسلام)، دار الكتاب العربي، لبنان، بيروت/ صيدا، ط١١
٤. الجاحظ، أبوعثمان عمروبن بحر. (١٩٩٨ م) ، (البيان والتبيين)، الناشر الخانجي، ط٧
٥. الجاحظ ، أبوعثمان عمروبن بحر. (بدون تاريخ) ، (كتاب الحيوان)، دار الجيل،لبنان، بيروت
٦. الرافعي، مصطفي محمود. (١٩٧٤)، (تاريخ آداب العرب)، ج١، دار الكتاب العربي ،لبنان، بيروت، ط٤
٧. رشاد، حسن. (بدون التاريخ)، (الكتاب والمكتبة والقارئ) ،سلسلةكتابك٢٤،دار المعارف، بدون مكان الطبع

٨. ريغ، دانيال. (٢٠٠٠)، (رجل الإستشراق)، ترجمة إبراهيم الصحراوي.الجفان و الجابي للطباعة والنشر ليماسول/ قبرص
٩. زيدان، جرجي. (١٩٩٣)، (تاريخ آداب اللغة العربية)، ٤اجزاء، موفم/ للنشر،الجزائر
١٠. الشكعة، مصطفي.(١٩٨٢)، (مناهج التأليف عند علماء العرب)، قسم الأدب. دار العلم للملايين، لبنان، بيروت.
١١. علي، جواد. (١٩٨٠)، (المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام)، دار العلم للملايين، لبنان، بيروت/ مكتبة النهضة، العراق، بغداد، ط٣،جلد،١٥،١٧،١
١٢. الصحراوي، إبراهيم. (٢٠٠٨)، (السرد العربي القديم)،الدار العربية للعلوم ناشرون.منشورات الاختلاف،الجزائر العاصمة،.
١٣. حسين، طه، (١٩٧٤)، (تاريخ الأدب العربي) ، دار العلم للملايين،لبنان، بيروت.
١٤. الضبي، المفضل بن محمد، (بدون تاريخ)، (المفضليات)، الناشر دار المعارف، ط ٦
١٥. ضيف، شوقي. (١١١٩ م)، (تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي)، دار المعارف، كورنيش النيل ، القاهرة، ط ٢٢
١٦. أصول البحث الادبي و مصادره)،جامعة المدينة
١٧. إبن الخلدون،(المقدمة).